أديب الشام الدكتور شكري فيصل

للدكتور نسيب نشاوي
جامعة عنابة

نعت الأوساط العلمية والأدبية والصحافة والاذاعة بدمشق وفاة أديب الشام الكبير الدكتور شكري فيصل عضو مجمع اللغة العربية بدمشق وعضو مجامع اللغة العربية في القاهرة والأردن وبغداد والهند، وأستاذ الدراسات العليا في جامعة دمشق والجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة، وعضو اتحاد الكتاب العرب.

توفي العلامة اللغوى الأديب المجمعي الدكتور شكري فيصل إثر عملية جراحية أجريت له في جنيف بسويسره مساء يوم السبت في ١٤٠٥/١١/١٧هـ الموافق ١٩٨٥/٨/٣م وصلي عليه بالمسجد النبوي الشريف ووري جثمانه الطاهر بالمدينة المنورة يوم السبت في ١٤٠٥/١١/٢٤هـ الموافق ١٠/ ٨/ ١٩٨٥م. ففقد مجمع اللغة العربية عالما بارا بأمته ورجلا من رجال الأدب والفكر كان له فضل كبير في تخريج جيلين من الأدباء والجامعيين تابعوا نهجه في الاعتزاز بالتراث العربي الاسلامي والعمل على نشره واحيائه.

وبدمشق(الشام) حيث ولد الأستاذ الفقيد تقبلت أسرته التعازي وكان لي شرف المشاركة في تقديم التعزية.

عرفتُ الدكتور شكري فيصل منذ نحو ثلاثين سنة، اذ كنا نسكن بالحي الذي يسكن فيه بدمشق وهو(حي العقيبة)وكانت أسرته وأبناء عمومته يقطنون هذا الحي أيضا ويقع في قلب مدينة دمشق القديمة(الشام)، وعرف آنذاك بوداعته وجده ووجاهته وعلمه، اذ كنت أسمع مما يتردد بين رفاق الصبا أنه نشأ عصاميا ثقّف نفسه بنفسه وتفّوق على الأقران ثم سافر الى مصر فدرس الماجستير والدكتوراه ونال المراتب الرفيعة. فصار قدوة أهل الحي، وما كنت أعلم أنني سأكون في يوم ما في عداد طلابه بكلية

الآداب بجامعة دمشق فقد كان أستاذاً فيها منذ مطلع الخمسينات واذ ذاك كنا في المدرسة الابتدائية.

ولما دخلت جامعة دمشق عام ١٩٦٦ م صرت أحد طلابه بقسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب ورأيت أن شهرته آنذاك قد طبقت الآفاق وملأت الوطن العربي، ودرست عليه سنتين، ففي السنة الأولى ألقى علينا محاضراته في مادة(الأدب الجاهلي) فكان يَحْدث لي ولطلابه ما يشبه النشوة أو الغيبوبة عن هذا العالم فنسبح مع الأدب الخالد وآفاقه وعواطفه وصوره: وتتجلّى لنا الحياة العربية القديمة بفطرتها السليمة وعواطفها البريئة ومباذلها الطريفة، وخاصة حين تنكبّ على الغزل العذرى أو المادى.. أو المفاخرة بالأحساب والأنساب والقوة الجسدية والنفسية.. ولم تزل اعتذاريات النابغة الذبياني لأبي قابوس ملك الحيرة ترنّ في سمعي الى الآن ولا سيما قوله:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأر من الأسد

وما زلت أتبنّى رأيه في طه حسين الذي نفى كثيرا من الشعر الجاهلي في أن طه حسين أراد أن يعاكس التيار ليلفت النظر أولا وليلقي صخرة كبيرة في مياه الأدب الراكدة في مطلع هذا القرن، ويتبنّى منهجا جديدا في معالجة النص الأدبي قائما على الشك الديكارتي..

وأثمرت هذه المحاضرات بعض المطبوعات التي قدمها لنا عن (**طبقات فحول الشعراء**) لابن سلّام و(الشعر والشعراء) لابن قتيبة، وكتابين ألفهما- رحمة الله- أحدهما في دراسة(النابغة الذبياني) والآخر هو (تحقيق ديوان النابغة) صنعة ابن السكيت نشره ببيروت عام ١٩٦٦م. وطلب الينا أيضا التركيز على كتاب (تطور الغزل في الجاهلية والاسلام) وهو من تأليفه أيضا. ولم يقصر المقرر الجامعي على هذا فحسب فهناك كتاب(في الأدب الجاهلي) لطه حسين، طلب الينا حفظه وحفظ جميع الردود التي تصدت له والمعركة الأدبية التي دارت رحاها حوله آنذاك ولا سيما الصدام الذي وقع بين الرافعي وطه حسين وحركة التأليف التي نشطت اثره والتي أخرجت أخيرا الكتاب القيّم الذي صنعه الدكتور ناصر الدين الأسد تحت عنوان(مصادر الشعر الجاهلي) حيث أثبت صحة الأدب الجاهلي بشكل علمي دقيق..

أما الأستاذ العلامة أحمد راتب النفاخ فجعل آنذاك يلقي محاضراته حول سائر شعراء الجاهلية كشعراء المعلقات والشعراء الفرسان والشعراء الصعاليك.. وقد اختار لهم نصوصا ذهبية جعلها في كتاب قيّم موّثق بعنوان(**نصوص مختارة من الشعر الجاهلي**) ليدعم مقرر الأدب الجاهلي الذي يحاضر فيه الدكتور فيصل.

ان ملاحظة حجم المادة التي كان يحاضر فيها الدكتور فيصل في الستينات يوحي باخلاص هذا الرجل وسعة علمه وصدقه في تقديم منهاج شامل متكامل لطلابه الجامعيين، خصوصا اذا عرفنا أن حجم الزمان المخصص للمحاضرة لا يعدو ساعتين اسبوعيا خلال عام دراسي، واننا لنحنّ الى تلك الأيام التي كان فيها التدريس الجامعي على هذا النحو.

في عام ١٩٦٨ م وكنا نجحنا الى السنة الثالثة بكلية الآداب سمعنا أن الدكتور فيصل قد عزم على السفر الى الجزائر لتدريس الأدب العربي في جامعة الجزائر العاصمة فأدركت أنه ودع طلابه في أثناء امتحان(الأدب الاسلامي) قبل شهور اذ دخل علينا ونحن في قاعة الامتحان وسألنا عما نحتاج اليه لمعالجة أسئلة المقرر، ولم يكتف بهذا بل أخذ يتقدم الى كل طالب في مقعده ويحييه بلطف ووقار مشيرا اليه أن اسأل عما بدا لك.. وتلك لحظات لا أنساها حين أطلّ عليّ وأنا في غمرة التفكير وسألني: هل السؤال واضح؟

وفعلا أعارته جامعة دمشق الى جامعة الجزائر ثلاث سنوات، وبقيت اتبادل الرسائل معه وما زلت أحتفظ ببعض ما أرسله اليّ من الجزائر. ولما تخرجت في جامعة دمشق كان قد عاد فصرت أزوره فيساعدني بتوجيهاته القيمة حول رسالة الماجستير التي كنت أعدها بعنوان(لبيد بن ربيعة العامرى حياتهُ وشعره في الجاهلية والاسلام)، ثم صرت أزوره بمكتبه وهو أمين عام لمجمع اللغة العربية بدمشق.

ففي حدود عام ١٩٧٣ م انتخب أمينا عاما لمجمع اللغة العربية بدمشق فبدأ يخطط لمشروع علمي ضخم وهو نشر موسوعة (تاريخ دمشق الكبير) لابن عساكر، فاستعان بوزارة الدفاع السورية فأبدت استعدادها للمساعدة، وانتدب لهذا العمل فرقة من الباحثين في التراث عملوا باشرافه وتوجيهه نحو خمس سنوات، فأخرجت المجموعة جزءا من كتاب تاريخ دمشق الكبير عام ١٩٧٧ م في ألف صفحة من القطع الكبير، وصار هذا

الجزء نموذجا للمحققين الذين دأبوا بعد ذلك على نشر بقية الأجزاء، وطالت الطريق على السائرين لأن كتاب ابن عساكر يتألف من ٥٦٠ جزءا.. وهذا يعني أن المشروع سيحتاج الى عشرات السنين.. وأخذ المجمع يفكر في هذا الشغل الذي أرهقه وأرهق الباحثين، ولكن عزيمة الدكتور فيصل كانت أشد من أن ينالها الوهن والرهق فأصرّ على متابعة ما خطط له.. وأصدر أجزاء أخر من الكتاب.. واضطر الى ترك أمانة المجمع فبقيت شاغرة الى أن قبلها العلامة الأستاذ الدكتور عدنان الخطيب منذ عام ١٩٨١.

بين عام ١٩٧٠م وعام ١٩٨١م كان الدكتور فيصل في أوج نشاطه وعطائه وهو يعبر الخمسين الى الستين من العمر (ولد عام ١٩١٨م) وكأنّ الأيام تزيده توقدا وحيوية، وهي حيوية كان يسكبها على التراث العربي الاسلامي فينبرى لنشره وتشجيع حماته وأنصاره، يحاضر في عدة جامعات عربية في دمشق وبيروت وقطر والكويت وكأنما حببت اليه الأسفار فما ان يستقر حتى يرحل للتدريس أو المشاركة في المؤتمرات العربية والعالمية ونشر بحوثه ومقالاته وكتبه وتحقيقاته وزيادة على ذلك هو عضو عامل في المجمع بدمشق وعضو بارز في مجامع القاهرة وبغداد والأردن والهند.. يشرف على لجنة احياء المخطوطات ونشر التراث وعلى مجلة المجمع بدمشق ويدافع عن العرب والمسلمين في المحافل دفاع الغيور القوى فلا يترك فرصة للنيل من أعدائهم، ولقد صبغ طلابه والباحثين من حوله بهذه الصبغة، فتخرجت على يديه نخبة استلهمت منه حب العربية وتراثها واسلامها، ولعل أحدا لا يستغرب اذا قيل ان كثيرا من أساتذة اللغة العربية في الجامعات السورية من طلابه أو ممن تتلمذ عليه، تخرج على يديه جيل كامل من الأدباء والأكاديميين.. وما زال ذكره عطرا وذكرياته طيبة وما أظنها تموت.

حزّ في نفسه في عام ١٩٨١ م أن أحيل على المعاش فخرج من هيئة التدريس بجامعة دمشق، وما واتاه جو المجمع اللغوى بدمشق لأنه أخذ يميل الى نشر التراث العربي عامة.. فلم يعد المجمع يقصر همه على (تاريخ دمشق الكبير).. وتلقى بعض صدمات في أسرته ما أحبّ أن يفصح عنها.. فأكثر من الصمت، وتبيّن أنه بدأ يفكر بمجاورة رياض رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة فأمضى عقدا مع رئاسة الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة وسافر اليها أستاذا للدراسات العليا منذ عام ١٩٨١م.. ولم يقطع صلته بمجمع اللغة بدمشق لأنه أحبه حبا عظيما فصار يزوره في عطلة الصيف ويلتقي زملاءه فيه، كما لم

يقطع صلته بالجزائر فكان يزورها أيام انعقاد(ملتقى الفكر الاسلامي) السنوي، وآخر ما عرفته الجزائر هو مشاركته في ذلك الملتقى في العام الماضي ١٩٨٤م وهي آخر مرة رأيته فيها وكان يجلس عاليا قرب سدة رئيس الملتقى.

ترك الدكتور شكرى فيصل شواهد آبدة أذكت حركة نشر التراث العربي الاسلامي بسورية والعالم العربي، وأسهم في تنشيط الحركة الفكرية والثقافية العربية مع أمثاله من المصلحين، وزيادة على ذلك ألف كتبا جامعية في منهجية البحث الأدبي أو ما سماه (مناهج الدراسة الأدبية) ١٩٥١م وهو رسالة ماجستير قدمها الى الجامعة المصرية عام ١٩٤٩م. ودرس حركة الفتوح الاسلامية في كتابه (حركة الفتح الاسلامي)، وحلل المجتمع العربي عقب انتشار الاسلام في كتابه (المجتمعات الاسلامية في القرن الأول الهجري وتطورها اللغوي والأدبي) وهو رسالة دكتوراه، واعتنى بنشر التراث واختار منه شعراء الشام فاتصل بمجمع دمشق ونشر فيه كتاب (خريدة القصر وجريدة العصر- قسم شعراء الشام) في (٣) أجزاء نشر الجزء الأول عام ١٩٥٥ والثاني عام ١٩٥٩ والثالث عام ١٩٦٤، وعني في هذه الأثناء بنشر ديوان أبي العتاهية محققا وطبعه عام ١٩٦٤ بعنوان (أبو العتاهية أشعاره وأخباره) ثم ديوان النابغة الذبياني صنعة ابن السكيت ١٩٦٨ ببيروت، ثم التفت الى العناية بيسر الأعلام من العرب والمسلمين في المشروع الضخم الذي نوهنا به من قبل وهو تحقيق كتاب (تاريخ دمشق الكبير) جزء (عاصم- عايذ) ١٩٧٧، وجزء (عبد الله بن جابر- عبد الله بن زيد) ١٩٨١م بالاشتراك مع سكينة الشهابي ومطاع طرابيشي، وجزء (عبادة بن أوفى- وعبد الله بن ثوب) ١٩٨٢ بالاشتراك مع روحية النحاس ورياض مراد، وهذا المشروع ان لم يكتمل اليوم فان له كثيرا من المتحمسين الذين ما زالوا يعملون بدأب وصبر لانجازه وتحقيق أجزائه الباقية منهم من بقي في المجمع ومنهم من يحقق خارج المجمع.

كما شارك في انجاح مشروع الدراسات العليا بجامعة دمشق- كلية الآداب- وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعة دمشق والجامعات العربية الأخرى وقاوم حركة التغريب.. وعمل على دعم الأصالة العربية الاسلامية واعلاء الأدب الرفيع الأسمى.. فكان نبراس خير وقدوة سلوك.. ومثلا أعلى للغيور على العرب والمسلمين.